تمثيلات النسق في أدب الحمامات في التراث العربي(*)

تغريد حسن أحمد عبد العاطي

كليه الاداب – جامعه القاهرة

الملخص

يدرُسُ هذا البحث تمثيلات النَّسَق في أدب الحَمَّاماتِ، وهو موضوع مهمش، و يهدُف إلى رصد العلاقات التي تتولّد عن هذا الفضاءِ المكانيّ والأنساقِ التي تتمثل فيها اتفاقا مع الدّور الاجتماعي للحمّامات العامة وما يقدِّمه أدبُها من معانٍ وحقائقَ لم تبرُز في موضوعات الأدب المشهورة، واتّخذ البحث منهجًا أفاد من مقولات النقد الثقافي لدراسة واحد من الموضوعات المهمّشة واستنطاق المعاني الضَّمنية في نصوصه لذلك قُسم البحثُ إلى ثلاثةِ محاور الأول: الأقاليم والثاني: الأنْساقِ المتعددة والثالث: النسق الجمالي المرجعي. وقد خَلُص البحث إلى نتائجَ منها جِدَّةِ الموضوع و تناثُر مادة البحث في ثنايا كتب الأدب والخطط وكتب الرحلات ودواوين الشعراء، والرّبط بين أحد موضوعات الشِّعر والدراسات المنهجية الحديثة التي تبين تمثيلات النسق الحضاري في دراسة الأدب والكشف عن مجموعة علاقات متنوعة مختلفة من منظور واحد وفي أنواع أدبية مختلفة، ويُتوقع أن يسهم البحث في توجيه الدراسات الأدبية نحو الموضوعات المهمشة في الأدب العربي في مصر من منظور التحليل الثقافي.

الكلمات المفتاحية: أدب الحمامات، تمثيلات النسق، التراث العربي

Abstract

This research studies the representation of patterns in the literature of lamas, which is a marginalized topic. It aims to establish the clear relationships that arise from this spatial space and the patterns and fields that it creates with the social role of public baths and the meanings and facts that their literature provides that have not emerged in the subject of famous literature. It adopted the research approach. For this reason, it was transferred to the book Cultural Criticism, one of the important topics, and the scope of implicit meanings in its texts is therefore divided into three axes: the first: the previous villains: the patterns are different:

(*) تمثيلات النسق في أدب الحمامات في التراث العربي، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، يناير ٢٠٢٤ ، ص ص٤١-٧٦.

the aesthetic reference pattern. The research reached results including the novelty of the topic and the influence of the research material within the folds of literature books, plans, writing studies, and poetry collections. And linking one of the topics of poetry with modern methodological studies that show representations of the cultural pattern in the study of literature and revealing a variety of different relationships from one perspective and in different literary types. It is expected that the research will contribute to directing literary studies towards marginalized topics in Arabic literature in Egypt from the perspective of analysis. Cultural
Keywords: Representations of patterns, Bathhouse literature, Arab heritage

المقدمة:

أدب الحمامات العامة في هذا البحث موضوع لممارسات جماعة إنسانية تمثله مجموعة الأنساق الاجتماعية والثقافية والأدبية والدينية بما يجسد أهميتها في المجتمعات الإسلامية،ويبرز تقديمها لإيديولوجيا تلك المجتمعات وتمثيلات النسق برؤية شاملة ؛ فالحمامات العامة من الظواهر التي اقترنت بإنشاء المدن والتخطيط لها في الأقاليم العربية المختلفة، وورد الحديث عنها في كتب التاريخ والرحلات والخطط في مصر والشام والعراق ودول المغرب العربي، واشتمل ذكرها على ما أطلق عليه أدب الحمامات: ويعني السلوكيات والعادات التي تلتزم في هذا المكان، وتحكم علاقاته مما يؤكد أن مفهوم النسق يتحقق اجتماعيا في أدب الحمامات على نحو خاص مختلف عن نسق المدح والعطاء لنسق أكثر فطرية وحرية في ممارسة الأدباء، يضاف إلى ذلك أن الحمامات كانت فضاء لتبادل المعلومات ونظم الأشعار وكتابتها على جدران الحمامات، كما كان وصف الحمامات مجالا للمدح فيما يستحسن والذم والسخرية فيما يستهجن في المكان، وهذا يحقق مفهوم النسق ثقافيا، وليس هذا ببعيد عن الآداب التي يتبعها المسلم أو يخالفها أثناء دخول الحمام مما يشير إلى النسق الديني.وتحمل تلك الأنساق وعلاقاتها رؤية العالم من منظور النصوص وتمثيلاتها كما تكشف عن مفهوم السلطة الاجتماعية التي تعد بمثابة السلطة المرجعية لما يُسمح به أو يُحرّم من العادات التي تشكل نسق العلاقات وتتفق هذه العلاقات مع ما يعبر عنه مفهوم النسق حديثا فالنسق كلمة تدل على (مجموعة من العناصر والبنيات التي

تتفاعل فيما بينها وفق مجموعة من القواعد والمبادئ والمعايير. ويتحدد النسق أيضا بواسطة مكوناته وعناصره وبنياته التي يتضمنها) (حمداوي، ٢٠٠٦، ص ٧) وتشير بعض المصادر إلى وجود مثل ظاهرة الحمامات العامة في المجتمعات الأوربية، مما يثير تساؤلات حول المتشابه و المميز لثقافة بعينها أو مجتمع محدد وبالرغم من أهمية الموضوع وأصالته فإننا نجده مهمَّشا ولم يحظ باهتمام بارزٍ شأن موضوعات الأدب والشعر التي حفلت بها الدراسات الأدبية، وبناء على ذلك يتوجه البحث إلى دراسة موضوع أدبي مهمش وهو وصف الحمامات بهدف الإجابة عن تساؤلات حول ثبات النسق وتغيره في الأقاليم العربية في المصادر المختلفة ثم ندرس تمثيلات الأنساق التي تتحكم في معاني الأدب المرتبط بهذه **الظاهرة ثم نربط هذه الأنساق بالقيم الجمالية المرجعية لهذه الظاهرة الثقافية.بالإفادة من مقولات النقد الثقافي.**

١ – ١

أصل الحمامات لغويا: الحَمَّة وهي العين الحارة يستشفى بها الإعِلّاء والمرضى (. الجوهري، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م مادة: حمم ج٥ ص١٩٠٤) مشتق من الحميم أي الماء الساخن (.الفراهيدي، ص ٣٣، الجوهري، ص١٩٠٥)

والحميم: العرق أيضا ولذلك يقصد بالحمّام المكان الذي يُستحم فيه والذي يُعرق فيه أيضا ؛ والدلالة هنا تتلاءم مع ما سيأتي من معاني الشعراء حول الحمامات من الاستحمام والاستشفاء (فأما قولهم لداخل الحمام إذا خرج: طاب حميمك فقد يُعنى به الاستحمام، وهو مذهب أبي عبيد وقد يعنى به العرق أي طاب عرقك وإذا دعي له بطيب عرقه فقد دُعي له بالصحة لأن الصحيح يطيب عرقه الأزهري: يقال طاب حميمك وحَمّتك للذي يخرج من الحمام أي طاب عرقك)،ويعادله من المعرَّب(الديماس) (ابن منظور، ١٤١٤هـ ج١٥ : ج١٢ص ص ١٥٤ – ١٥٥). و قد ورد لفظه مؤنثا في كتب الخطط، وفي تأنيثه يورد الزمخشري بيتا أورده الجوهري وذكر أنه في وصف الحمام:

فـــإذا دخلـــتَ ســـمعتَ **فيهـــا** رجـــةً لغـــط المعـــاول في بيـــوت هَـــدادِ

وقال سيبويه: جمعوه بالألف والتاء وإن كان مذكرا حين لم يكسَّر جعلوا ذلك عوضا من التكسير (. ابن منظور. *لسان العرب*، مادة (حمم). ج١٢، ص ١٥٤، المقريزي، ١٤١٨ هـ، ج ٣ ص ١٤٧)

وصف د. زغلول سلام موضوع الحمامات بأنه موضوع طريف (الأدب في العصر الأيوبي، ج١. ص ٢٠٥) ووُصفت الكتابة في هذا الموضوع بالجدة والبكارة. (.يوسف بنات ٢٠١٥م : ص ٥٩) وقد توجهت الأنظار إلى الكتابة في هذا الموضوع جزءًا من دراسة الفضاء المكاني وإلهام الأدباء لخصوصية المكان والطقوس التي تراعى فيه (انظر. المجدوب ٢٠١٢ م: ص١). ويتغير اسم الحمام نفسه من عصر إلى آخر فينسب إلى أكثر من أمير أو مملوك، فالمقريزي يكتب عن حمام السلطان قائلا: (كان اسمه في أيام الفاطمية حمام الأوحد ثم حمام ابن يحيى ثم حمام الطبرسي ثم الآن حمام السلطان) (المقريزي، ص ص ١٤٧، ١٤٩) وبعض الحمامات تُضم إلى أوقاف الملوك فانضم حمام السلطان إلى أوقاف الملك السلطان.

وللكشف عن أهمية دراسة تمثيلات النسق في أدب الحمامات نلقي الضوء على الحمامات ذاتها ؛ فهي من المرافق السبعة التي ينبغي أن تتوفر في بناء المدن قديما فقيل في تخطيط المدن:

وقد شغل أدب الحمامات حيزا في الأدبين الرسمي والشعبي في كثير من الأنواع الأدبية مثل: الشعر والقصص والأمثال والمقامات ولكنها لم تحظ بدراسات شأن الموضوعات الأخرى. (العساف، ٢٠١٦ م، ص ٤)

يكشف تطور الحمامات منذ العصر الروماني حتى العصر الحديث عن تمثيلات جمالية عبر الزمان والمكان ؛ حيث كان لبناء الحمامات طوابعها المعمارية في حضارات مختلفة بعضها يصمم ليكون فضاء للتلهية وخدمة ديانة الجسد كما في الحضارة الرومانية، بينما يعبر عن طهارة المسلم ولذة التطهير عنده في الحضارة الإسلامية. (انظر. المجدوب ٢٠١٢ م: ص١)، وبذلك يعد النص الأدبي المنتج في هذا الفضاء **معطىً ثقافيا يتفق** مع منظور النقد الثقافي للأدب (ليس باعتباره نصا بل بمثابة نسق ثقافي يؤدي وظيفة نسقية ثقافية تضمر أكثر مما تعلن). وهذا الأدب بذلك من العناصر السوسيو ثقافية لمؤسسة تقليدية في تكوينها ومهامها وهي (الحمامات) (حمداوي. ٢٠٠٦م، ص ٧)، وبالنظر إلى طبيعة الموضوع ذاته والهدف من دراسته، نجده من الموضوعات المهمشة في الدراسات الأدبية بالرغم من أنه ينبع من داخل المجتمع، كما أنه متأثر بمجموعة من الوحدات الوظيفية المرتبطة مع بعضها البعض حيث (يتكون النسق من مجموعة من العناصر أو من الأجزاء التي يرتبط بعضها ببعض مع وجود متميز أو مميزات بين كل عنصر وآخر)[٢].

إن دراسة الموضوع على هذا النحو تجسد نمطا من أنماط التكامل الثقافي حيث يتكامل النسق الديني والحضاري والاجتماعي في تجسيد النسق الثقافي لأدب الحمامات. فالحمامات فضاء يحتكم إلى عناصر مشتركة بين أكثر من مكان وعناصر مختلفة بينها أحيانا، كما أن لها بنيةً داخلية ظاهرة وحدودًا مستقرة مقبولة من المجتمع، وبذلك يمكن من خلال التحليل الوظيفي الكشف عن النسق الاجتماعي له والذي سيتولد عنه النسق الحضاري والنسق العلمي،كل هذا تأثرا بالبيئة المحيطة وتأثيرا فيها. ومن خلال دراسة تلك الأنساق تنفتح الدراسة على النسق الثقافي الأدبي الذي يستمد سلطته من النسق الديني والاجتماعي.

٢ – ١

الأقاليم والحمامات:

اختلفت الآراء حول أول أمة عرفت الحمامات وأول من دخلها بنسبتها إلى العصر الروماني بإيطاليا في القرن الثاني قبل الميلاد أونسبتها إلى تاريخ الفراعنة في مصر أونسبتها إلى الشام في العصر الروماني والإغريقي،

وبالنظر في **مصادر التاريخ الإسلامي** نجد أن أول حمام عمومي في مصر نسب إلى عهد عمر بن الخطاب وبعض الآراء ترجئها إلى العصر الأموي بوجود محدود حيث انتشرت وازدهرت في العصر العباسي في بناء سامراء والمتوكلية. حتى إن الأوروبيين حينما وفدوا إلى بلاد المسلمين في الحملات الصليبية نقلوها إلى أوروبا (إدريس مصطفى. ٢٠٠٨ م:، ص ٣، و منصور العساف ص ٤).وبالرغم من اختلاف الآراء حول بدايات محددة نجد بعض الأخبار الأسطورية تروي أن أول من دخل الحمامات سليمان عليه السلام بمساعدة الجن. (ابن الجوزي، المدهش، ١٩٨٥ م، ج ١ ص ٥٢، القلقشندي، ج: ١٥ ج ١ ص ٤٨٥)

وعنيت بعض كتب التاريخ والخطط وكتب الرحلات بذكر بداية بناء الحمامات وعددها في بعض المدن الإسلامية. كما أبرز بعضها تصميم الحمامات وموقعها من المنشآت الأخرى كالمدارس ومساكن الجنود والرياض ومصادر المياه. (ابن جبير *ص:* ٣٢، عبد اللطيف البغدادي. ١٢٨٦هـ ص: ٣٩، ٤٠)، ومن أوائل كتب التاريخ التي اهتمت بذكر حمامات مصر كتاب (فتوح مصر والمغرب) لابن عبد الحكم ؛ عبد الرحمن بن عبد الله أبو

القاسم ولد ١٨٧ هـ - توفي ٢٥٧ هـ فيما رواه عن الإسكندرية كتب (ابن عبد الحكم. ج١ ١٤١٥ هـ ص.: ١/ ١٠٦)

وقد أفاضوا في الكتابة عن بعضها بينما أوجزوا في الكتابة عن أخرى، ولم تتوحد محاور الكتابة عن الحمامات في كل المدن حيث أبرزت القيمة حينا وذكرت النسبة حينا و وصفت الحمام حينا آخر.ومن الأقاليم التي وردت مواضع للحمامات مع اختلاف أعدادها في كل منها الإسكندرية والقاهرة وأمن العين ومكة وبغداد والموصل ودمشق وصقلية والمغرب وبيروت واليمن.[٣]

١ - ٢

تمثيلات النسق والسلطة الدينية:

تقترن الحمامات في النسق الديني بالثقافة الإسلامية وتخصيص المكان للطهارة، وبالرغم من ذلك فإننا نجد التمثيل الشعري للحمامات يجعله فضاءً للأبرار والفجار على حد سواء، حقيقة ومجازا، وأصحاب ديانات أخرى.

يتحكم النسق الديني في التوجه إلى الحمام انطلاقا من وجوب الطهارة وتبعا لذلك يسلك مسلكا محددا فيما يقال عند دخول الحمام وما يرتديه الرجل وما يوجب الذهاب إليه عند النساء. وصنع العلماء مرجعيتهم بالتأليف في هذا الموضوع بذكر علاقة المسلم بالحمام والأمور المستحسنة والأمور المرفوضة كتب منها (المنهيات للترمذي محمد بن علي بن الحسين ت ٣٢٠ هـ - الكلم الطيب لابن تيمية ت ٧٢٨ هـ- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للسفاريني محمد بن أحمد ت ١١١٨ هـ) وترد آدابه موثقة بالسنة، ففي دخول الحمام يورد ابن تيمية: (ابن تيمية ١٩٨٧- ١٤٠٧ ج١: ١٠١)

ومن الأحكام الشائعة التي تختلف الأحوال فيها إلقاء السلام أو الرد عليه، فكره البعض الابتداء به وأباح الرد،وآخرون أجازوه في الحالين لقوله – صلى الله عليه وسلم – أفشوا السلام بينكم) لعدم وجود نص تحريم والأصل الإباحة. (السفاريني، ١٤١٤ - ١٩٩٣هـ: ١ / ٣٥٦)

وقد اختلفت النظرة إلى دخول الحمام أيضا بين الإباحة والكراهية بين الرجل والمرأة فقيل (دخول الحمام مباح للرجال وإن خِيف مُحَرَّمٌ كُرِه وإن عُلِم حُرِّم والله أعلم)(

السفاريني : ١/ ٣٩٦) وقالوا بنهي المرأة عن الدخول إليه إلا إن كانت سقيمة ؛ فتدخله مستترة وبهذا أرسل عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد بذلك. وكرهوا بناء حمام للنساء وحكموا على من يبني حماما للنساء أنه ليس بعدل (الترمذي ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦م: ج١: ١٥٩ وانظر: السفاريني ١ / ٣٩٥) وتتمثل السلطة الدينية في التفرقة بالنظر إلى حكم العورة قيل إن سبب ذلك أن المرأة من قرنها إلى قدمها عورة وكذلك لم يسمح للرجل بدخوله إلا بمئزر إن لم يكن وحده لأن النظر إلى عورة المسلم حرام.

وفي هذا النسق تكره قراءة القرآن في الحمام قليله وكثيره، وقيل لم يكرهه النخعي ومالك. وكذلك اختلفوا في كراهية الذكر في الحمام ولكن الأغلب عدم الكراهة لأن ذكر الله تعالى في كل مكان حسنٌ ما لم يرد المنع به، وروي أن أبا هريرة- رضي الله عنه – دخل حماما فقال: لا إله إلا الله، والنبي – صلى الله عليه وسلم – كان يذكر الله في كل أحيانه (السفاريني: ١/ ٣٩٤ – ٣٩٦)

كذلك كان وقت دخول الحمام أيضا موضع خلاف، فأورد صاحب غذاء الألباب عن ابن الجوزي في منهاج القاصدين كراهة دخول الحمام قريبا من الغروب وبين العشاءين، لانتشار الشياطين، ثم يقول: وفي الإقناع لا يكره ذلك. (السفاريني: ١/ ٣٩٥)

ويبدو هنا اختلاط الأسباب التي تأتي معللة لبعض الأحكام المرتبطة بالحمام بين أسباب دينية وأسباب أيديولوجية خاصة بمعتقدات العرب حول الشياطين.

وهنا يتجلى الجدل إيديولوجيا في تحديد موقف الذاهب إلى الحمام وتحكم المعتقدات في وقت الذهاب إليه.وفي هذا النسق يبدو موقف الشاعر من الحمام بين الشرق والغرب في العالم الإسلامي، فتبدو الرؤية الدينية واضحة في شعر ظافر الحداد في مصر متسقة مع السلطة الدينية حيث يؤكد شعره تحريم كشف العورة إلا لمن فقد العقل والدين، ويحاول الإقناع باستخدام القياس على السوق ؛ فإن كان يسهل على الإنسان كشف العورة بالسوق لجاز له ذلك بالحمام، وبذلك يقنع بقبح كشف العورة في الحمام يقول (الديوان ١٩٦٩م: ٣١٥)

لا يكشـــف المـــرءُ في الحـــمّام عورتَـــه ... إلا لحالين فقدِ العقـل والديـــــــنِ
وحالـــة الســـوق والحـــمامِ واحـــدةٌ ... والفـــرق في ذاك معـــدوم البراهيـــنِ

ويختلف تمثيل النسق عند المغاربة فيقول المقدسي ت ٣٨١ هـ عن أهل المغرب (يدخلون الحمام بلا ميازر إلا القليل) (المقدسي ج١ ١٤١١هـ - ١٩٩١ م: ١ / ٢٣٩) وعلى خلاف الرؤية الدينية التي تجعل الحمام بغرض الطهارة مما يؤكد التزام مرتاديه يرى ابن خفاجة الأندلسي أن الحمام فضاء للأبرار والفجار معا حقيقة ومجازا يقول:[٤]

أهـــلا ببيـــت النـــار مـــن منـــزلٍ شَـــيِّد لأبـــرارٍ وفجـــارِ
ندخلـــــه ملتمســـــي لـــــذة فنـــــدخل الجنـــــةَ في النـــــار

ومن الظواهر التي تخالف النسق الديني ما روي عن الأعمى التطيلي ت ٥٣٥ هـ في نفح الطيب للمقري ت ١٠٤١ هـ في الغزل داخل الحمام ما يبين وجود خوارق تتسبب في فرض ضوابط على مستخدمي الحمام يقول: (المقري: ج٣ ص ٣٤٨، إدريس مصطفى ١٥.، الغزولي، : ١٤٣.)

هـــل اســـتهالك جســـم ابـــن الأمـــيرِ وقـد سـالت عليـه مـن الحـمام أنـداءُ
كالغصـــن بـــاشر حـــرّ النـــار مـــن كثـــبٍ فظـــل يقطـــرُ مـــن أعطافـــه المـــاءُ

وبالرغم من تقديم الصورة المثلى لزيارة الحمام عند ظافر ومخالفتها عند المغاربة فإننا نجد أشعارا متأخرة عن ذلك في الشام تتغزل بزوار الحمام وتجردهم من مآزرهم لدى محاسن الشوا الحلبي والعفيف التلمساني وجمال الدين يوسف، كما نجد أشعارا في المجون أيضا لإبراهيم بن المعمار وابن وزير قيلت في الحمام وردت في مطالع البدور ومنازل السرور للغزولي ت ٨١٥ هـ بما يشير إلى تمثيلات للتحرر من السلطة الدينية في أدب الحمامات مع التطور الزمني (مطالع البدور ومنازل السرور: ١٤٤) ويقترن ذكر الحمام بالنعيم والعذاب مجازا في قول أبي محمد البطليوسي ت ٥٢١هـ: (العساف: ٧)

أرى الحـــمام موعظـــةً وذكـــرى لكـــل فتـــى أريـــب ذي ذكـــاءِ
يـــذكرنا عـــذابَ ذوي المعـــاصي وأحيـــانا نعـــيم الأتقيـــاءِ

٢ - ٢

تمثيلات النسق الثقافي بين الذم والمدح:

أ- الذم

العلاقة بين الحمام والأديب تمثل جدلا لتنازع القيم بين المدح و الذم في طرافة للمعاني جعلت هذا اللون من الشعر أحد موضوعات كتاب (اللطائف والظرائف) للثعالبي ت ٤٢٩ هـ(٤٦) وأصبح يعنون لها في دواوين الشعراء وكتب الأدب (بما قيل في مدح الحمام وذمه)

وقد جاءت الرؤية النقدية للحمام سلبا لدى الأدباء والشعراء يتمثلها النسق الديني والنسق الاجتماعي والنسق الحضاري، يقول الشاعر فضل الرقاشي، وهو معاصر للخليفة هارون الرشيد ١٤٥ - ١٩٣هـ (إن الحمّام يهتك الأستار ويُذهب الوقار ويؤلف إلى الأطيابِ الأقذار) (الثعالبي، ج ١: ٨٥)

يذم الحمام إذن حينما يخرق الحياء ويذهب بالهيبة ويتسبب في القذارة ويذم لبرودته الشديدة في الصيف والشتاء وكذلك لحرّه الشديد الذي يشبّه بحر جهنم وقد أورد الثعالبي جملة من الشعر في ذم الحمام منها ما ينسب لمشاهير الشعراء تؤكد اتفاق الرؤية في الذم في بغداد والشام ومصر، ومنها أشعار مجهولة تأخذ طابع الشعبية مع طرافة التناص مع القرآن الكريم،فيورد قول ابن المعتزالعباسي ت ٢٥٥هـ[٥].

ما نلتُ بالحمّام حرًّا ولا ... يصلح فيه غير تبريدِ ماءِ
وجدتُ بالصيف به رعدةً ... فكيف أرجو عرقا في الشتاء

يبدو انتفاء غرض الذهاب إلى الحمام في الشتاء وهو الرغبة في التعرق وفي ذلك يبرز الهدف الطبي من دخوله.

وكذلك يذمه الصنوبري الأنطاكي ت ٣٣٤ هـ مؤكدا الهدف الاستشفائي الذي يذم الحمام إذا لم يتوفر فيه ما يحققه يقول:

حمامنا ليس فيه ماءُ ... وبرده ما له انقضاءُ...
فلم نُرده لدفع داءٍ ... هل يدفع الداءَ وهو داءُ

وشبهه ابن المعتز بالعجوز لبرودته ورائحته الكريهة، وعلى النقيض من الوصف السابق يُذمّ الحمام لشدة الحرارة ويتناص الشاعر مع ألفاظ القرآن مشبها إيّاه بجهنم، ويعد

مرتادوه بعدم العودة حتى يسلموا من ظلم أنفسهم:

وحمـــــامٍ دخلنـــــاه لأمـــــر حكـــــى ســـــقرا وفيـــــه المجرمونـــــا
فيصـــــطرخوا يقولـــــوا أخرجونـــــا فـــإن عدنـــــــــا فإنـــا ظالمونـــا

وقد ورد ذم الحمام في دواوين شعراء كبار في مصر مثل ظافر الحداد المصري السكندري ت ٥٢٩ هـ حيث تخصَّصُ قصيدة مستقلة في ذم الحمام يقول فيها في أحد عشر بيتا منها [٦]

حمّامنـــــا هـــــذا حِمـــــامُ وإنمـــــا صُـــحِّف الكـــــلامُ
أقـــــل أوصـــــافها ثـــــلاثٌ الـــبرد والنتـــــن والظـــــلامُ...

تهدم الأبيات النسق المثالي للحمام حيث يبرد الزائرون ويقفون بدلا من الدفء والراحة ويزيد من التعب امتلاء المكان بالحشرات والبراغيث وشقوقه بالزواحف، وقلة مائه، وسواد رخامه يُفزِع مرتاديه ويتسبب في هروبهم منه.

يبرز الذم إذن في تمثيل مخالفة مظاهر الحضارة التي ينبغي توفرها في الحمام، ويقدم صورة مغايرة لما يقترن بموضوع الحمام في التصنيف التقليدي الذي يقرنه بشعر الوصف وما يحمله من مظاهر جمال، وكذلك يقدم معجما مختلفا عن اللغة الشعرية المألوفة للهجاء والذم تنبع من الواقع وتجعل من المجاز مرجعا لتقريب المعنى بخلاف المعجم الشعري المألوف، فأصبح معجم الهجاء والذم يشمل صفات (البرد، والقذارة، والظلام، وتشقق الجدران، والبراغيث التي تخترق اللحم والعظام، وقلة الماء، وسواد السقف والرخام) تلك الصفات ترفع عن العاقل اللوم إذا غادر الحمام عاريا، ومن ثم العاقل لا يدخل ذلك الحمام مرتين.

وتطور الهجاء إلى السخرية في قول ظافر: (ديوان ظافر: ٢، ٣)

وحمـــــامٍ إذا مـــــا كنـــــتَ فيـــــه فبادِرْ بالمذيّـــة والكســـــــــاءِ... /
ولـــــو أنيِ دعـــــوت عـــــلى عـــــدوّي بأصـــعب مـــا يكـــون مـــن الـــدعاءِ
لكانـــــت هـــــذه الحـــــمّام أقصـــــى نهايـــة مـــا اقترحـــتُ مـــن الـــبلاءِ

ومما قيل في ذم الحمام ما ينسب إلى الإمام الشافعي ت ٢٠٤ هـ يصفه بالجحيم (عز

الدين المعيار. ١٤٢٨هـ: ٥، ٦)

وكما قيل في ذم الحمّام، قالوا: في هجاء الحمّام وشخصوا الحمام وأصبح مهجوا من شعراء مجهولين وقد يفسر ذلك بأن كثيرا من الحمامات مملوكة لأمراء وقواد ومن أسباب هجاء الحمام ندرة الماء وانتشار الحشرات .

ويدخل الجناس في التعبير الشعري المشتق من اسم الحمام كما يوظف التضاد بين سام، وحام في بيتين:

إن حمامنـــا الـــذي نحـــن فيـــه هـــو في حاجـــة إلى الحـــمّام
فـــدخلنا ونحـــن أبنـــاء ســـام وخرجنـــا ونحـــن أبنـــاء حـــام

ومن الشعراء المغمورين الذين وجدت لهم أشعار في الحمام (الناجي المصري) يحيل إلى سام وحام أيضا: (الأصفهاني: ١٠٢ – ١٠٣)

قـد كنـت مـن سـامٍ فحـين دخلتُـه لشـقاء جـدي ردني مـن حـام

وقد يُذم الحمام لاختلاط الناس فيه وضياع رتبة الشخص فيصبح شأنه شأن الصغير والعدو فأصبح اختفاء الطبقية في الحمّام معيارا للذم، ومن ذلك شعر أبي عبد الله الحسين في ذم الاختلاط في الحمام ويقدم له المقري بقوله (**وألغز** بعضهم في الحمام بقوله (الغزولي.: ١٤٣،.المقري: ٣ / ٣٥٢، إدريس مصطفى.ج ٢ / ٢٦)

ومنـــزل أقـــوام إذا مـــا تقـــابلوا تشـــابه فيـــه وغـــدُه ورئيسُـــه...

٣ – ٢

ب – المدح

من الأدباء الذين أوردوا أشعار الحمام الثعالبي والنويري ت ٧٣٣ هـ مصنفة (بما قيل في مدح الحمام) بما يوضح نسق العلاقة بين الحمام وزائريه وتحديد الصفات التي يمدح الحمام حينما تتوفر فيه ويتبين تحول معجم الشعر المعنوي لمجال تشَبَّه به صفات الحمام حيث يغدو التشبيه مقلوبا في معظم الأحيان.

ومن الشعر الذي أورده الثعالبي له واستدل النويري به على مدح الحمام لشدة

حرارته [٧]

وبيـــتٍ كأحشـــاء المحـــبّ دخلتُـــه ... ومـــا لي ثيـــابٌ فيـــه غـــير إهـــابي
أُرى محرمـــا فيـــه ولـــيس بكعبـــة ... فـــما ســـاغ إلا فيـــه خلـــعُ ثيـــابِ...

ومن الأبيات يبدو **ارتفاع الحرارة صفة مستحسنة في** مواجهة ذمه السابق بالبرودة ولحرارته يشبَّه بجوف المحب وزائروه محرمون والماء ساخن كالدموع على فراق الأحباب وهو كجهنم يدخلها الإنسان ولكن دون ذنب تقاد نيرانه لصنع البخار المتكاثف وإضاءته جيدة تشبه إضاءة البدر في السماء.

ويروي الثعالبي أخرى ونسبها إلى أبي طالب المأموني في اللطائف بينما نسبَها إلى أبي الفتح البكتمري في اليتيمة، ويقدِّم له بأنه من شعراء آل حمدان وغيرهم من أمراء الشام وشعره يتغنى به للطافته وحلاوته [٨]

أحـــقَّ بيـــت مـــن بيـــوت الـــورى ... بصـــونه قـــدما وإيثـــارِه
بيـــت إذا مـــا زاره زائـــر ... وقـــد قضـــى أعظـــم أوطـــارِه
وهـــو إذا مـــا جـــاء مســـتنظفا ... مـــروءة الإنســـان في دارِه
يدخلـــه المـــولى بخـــزٍّ كـــما ... يدخلـــه العبـــد بأطمـــارِه

ويبرز نسق المديح الوظيفة النفسية والجمالية للحمام ؛ فالحمام الجيد يدفع الموت عن الإنسان إذ يسر العين ويمتع العقل وينقي القلوب كما ينقي الأجسام وبذلك يكون التطهير بدنيا ونفسيا وفي ذلك يقول ظافر الحداد (ديوانه: ٢٦٨)

يـــا رعـــى اللهُ مبـــدع الحمّـــام ... فلقـــد فـــاق حكمـــةً في الأنـــامِ
روضـــة العـــين **لـــذة العقـــل والحســـ ... ـــن جـــلاءُ القلـــوب والأجســـام**

وتتمثل **الوظيفة النفسية** للحمام في تعديل المزاج لمرتاديه وتشبيهه بالروض

فيما يورد الثعالبي لآخر مجهول (اللطائف والظرائف: ٨٤)

قـــم بنـــا قبـــل غـــرّة الإصـــباح ... وقيـــام الســـقاة بالأقـــداحِ
نتمشّـــى إلى النّعـــيم الـــذي فيـــه ... صـــلاحُ الأجســـام والأرواحِ...

فالحمام نعيمٌ وعلاجٌ للروح والجسم حيث يبدو جزءًا من الطبيعة يحسن الخروج إليها في البكور

وبالوظيفة نفسها تمتزج الجنة بالنار لتعديل مزاج زائريه كما يقول ظافر [٩]

وروضٍ لـه مـن حكمـة الصـخر أزهـارُ خصـيبٍ إذا مـا أَضرمـت تحتـه النـارُ
تجنـبْ قـرب الشـمس والبـدر دائـما فأكثر ما فيـه شـــــموسٌ وأقـمارُ
تولَّـــد فيـــه مـــن جحـــيم وجنـــة مـزاجٌ لتعـديل المزاجـــات مختـار

فالوظيفة النفسية **أساس** في مدح الحمام ومما يساعد على تحقق هذه الوظيفة أن يخلو الإنسان إلى نفسه رغبة في البكاء.يقول ظافر [١٠]

وحمـــامٍ حللـــتُ بـــه لكيـــــــما أفـــوزَ براحـــةٍ فيـــــــها ونفـــعِ
وكنـــتُ عُقَيـــب هجـــرٍ مـــن حبيـــبٍ أكـــلَّ تصـــبُّري وأصـــم ســـمعي /
فقلـــت لعلنـــي أخلـــو فـــأبكي بكـــاءً جَهـــد مقـــدرتي ووســـعي...

فعندما يريد الإنسان التسري عن نفسه عقب هجر الحبيب يذهب إلى الحمام حتى يبكي ويتطهر نفسيا كما يتطهر جسديا، فيجلب الحمام السرور للنفس مثل الرحيق والخمر.

ويتكرر وصف الحمام في ديوان ظافر ويبين مميزاته مما يجعل كل ما فيه مبهجا يريح النفس والقلب ماديا وروحيا.

ويعرض ظافر **لطقوس دخول الحمام** والمهمة التي يقوم بها موظفوه بسلب الداخل كل ما معه وهو جامع بين الجنة والنار وبين الشمس والقمر يقول (ديوان ظافر: ٣٦١)

بـــرٌ وبحـــرٌ جفـــاه الـــوحشُ والسَّـــمكُ معنـــى الجنـــانِ بـــه والنـــارِ مشـــتركُ...
يلقـــــاك مـــن بابـــه عمـــرو وعنـــترة فيسـلبانـــــك مـــا تحـــوي وتمتـــلكُ

ويُمدحُ الحمام بحسن الجوار أورد النويري (وقال آخر:

إن حمامـــــــــــك هـــــــــذا غـــــــيرُ مـــــــذموم الجـــــــوارِ
مـــــا رأينـــــا قبـــــل هـــــذا جنـــــــةً في وســـــط نـــــارِ)

(نهاية الأرب: ١ / ٤١٦)

ومن أفضل ما مُدح به الحمام قول السري الرّفا ت ٣٦٦هـ تقريبا، جامعا بين الأضداد فهو الحر والروح وهو النار والطيب (الثعالبي: اللطائف والظرائف: ٨٣)

بيـــت بنتـــه حكـــماءُ الـــورى فهـــو إلى الحكمـــةِ منســـوبُ
مجـــاور النـــار ولكنـــه يجـــاور النّـــارَ بـــه الطيـــبُ
حَـــرٌ هـــو النـــار لأجســـامنا والحَـــرُّ للأجســـام تعـــذيبُ

ومما أورده النويري فيما قيل في الحمامات قول علي بن عطية البلنسي ت ٥٢٨ هـ مما تقاس فيه نارُ الحمام على نار العاشق التي تتغلغل في جوفه (النويري: ١/ ٤١٥)

رُبّ حمـــــــامٍ تلظّـــــــى كتلظـــــي كـــل وامـــــقْ

ويقول أبو عامر بن شهيد الأندلسي ت ٤٢٦ هـ فيما أورده النويري: (النويري: ١/ ٤١٥)

نعِّـــم أبـــا عـــامرٍ بلذتـــه واعجـــب لأمـــرين فيـــه قـــد جَمعـــا
نيرانُـــه مـــن زنـــادكم قُـــدحت ومـــاؤكم مـــن بنـــانـــكم نبعـــا

مدح الحمام إذن يرتقي بالنسق من الوصف المادي إلى الوصف النفسي والمعنوي حيث تتحقق وظيفة التطهير النفسي والبدني بزيارة الحمام فكما تطهر حرارته بدن الإنسان تطهر نفسه مما يلم بها من ألم لذلك جمع إلى النار الجنة وإلى النار الطيب،وصمم برؤية حكيمة وفي الأندلس يستجاد بتحقيق اللذة.

٤ – ٢

تمثيلات النسق الاجتماعي (السوسيولوجي):

تجسد العلاقات المتمثلة بين الأفراد في سياق الحمامات في نسقين سلطويين الأول: الحمامي والثاني: الصحبة بينما تتجسد العلاقة بين طوائف المجتمع في تصنيفهم إلى مسلمين وأهل الذمة.

الحمّامي

الحمامي هو صاحب الحمّام وقيّمه، ويدعو إلى زيارته، ومما يكدره ويحزنه غياب المدعو وعدم تلبية الدعوة. وقد لقب أحد الشعراء المصريين بحرفته وهو نصير الدين

الحمامي، وأشعاره متفرقة في كتب الأدب جمعها رائد عبد الرحيم في بحث عنه ذكر فيه بعض الطرائف التي وقعت من الشعر في وصف علاقته بنظرائه الشعراء ومنها ما توجه به إلى السراج الوراق قائلا: (الغزولي.: ١٤٣، رائد عبد الرحيم: مج٢٧ (٥) ٢٠١٣م: ص: ٩٥١)

وكـــدّرتَ حمـــامي بغيبتـــك التـــي تكـــدّر مـــن لـــذاتها صـــفوُ مشـــربي

ويستدعي الحمامي صديقا إلى الحمام قائلا: ((الغزولي.: ١٤٤، رائد عبد الرحيم: مج٢٧ (٥) ٢٠١٣م: ص: ٩٦٦، ٩٦٧)

مـــن الـــرأي عنـــدي أن تواصـــل خلـــوةً كبـــدٌ حـــرّى وفيـــضُ عيـــونِ
تراعـــي نجومًـــا فيـــك مـــن حـــرّ قلبهـــا وتبكـــي بـــدمعَي قـــارحٍ وحـــزينِ

يصف الحمامي الوجود بالحمام بالخلوة ومرافق الحمام بالكبد والعيون الدامعة وذلك لحرارة الحمام وتدفق مياهه،ولو تخلف المدعو لذهب كل هذا هباءً.

ومن شعر النصير الحمامي تتضح سلطة الحمامي وكيفية نجاحه في هذه الوظيفة ؛ حيث يصادق الجميع ويدارسهم ويعرف كيف يأتي الأمور من أصولها ويورّي عن ذلك بمعرفة حر الأشياء من باردها وأخذ الماء من مجاريه وذلك بقوله ((الغزولي.: ١٤٤، رائد عبد الرحيم: مج٢٧ (٥) ٢٠١٣م: ص: ٩٤٩)

أعـــرف حَـــرّ الأشـــيا وباردَهـــا وآخـــذُ المـــاءَ مـــن مجاريـــه

من الأبيات السابقة يبدو النسق الثقافي المعجمي الخاص بشعر الحمامات حقيقة ومجازا،فالحزن كدر والحكمة يورَّى عنها بما يلائم المكان بمعرفة حر الأشياء وباردها وتجسد مرافق الحمام كأعضاء جسم الإنسان التي توصف بشدة الحرارة بذلك تنقلب المرجعية فيصبح تمثل الواقع مستندا إلى الوصف المعنوي الساكن في عقل الأدباء من قبل.

وتأتي العلاقة بقيم الحمام أحيانا في سياق الهجاء، فنجد ما ينسب إلى ابن أبي الأصبع، كما ينسب إلى شيخ الشيوخ بحماة في ذمِ موظف الحمام لأنه كاد يكسر ذراعه مما يكشف عن صعوبة العمل وما يحتاج إليه من قوة ومع القوة رفق في أداء المهمة [١٢]

وقـــيمٍ كلمـــت جســـمي أنـــــــاملُه بغـــير ألســـنةٍ تكلـــيمَ خرصـــــــانِ
إن أمســـك اليـــد منـــي كـــاد يكســـرِها أو سرّح الشـــعر مـــن فَـــوديّ أدمـــاني

فلـــيس يُمســـك إمســـــاكا بمعرفـــة ولا يســـرّح تســـريحا بإحســـــان

وتبدو طرافة التناص مع القرآن الكريم مع اختلاف السياق حيث يوري عن الإمساك الواقعي بالاحتفاظ بالمرأة مع توظيف مادة (عرف) من معروف إلى معرفة ملاءمة للعمل، وعن تمشيط الشعر بالتسريح ولكن المفارقة الأجمل أن **المعجم النسوي** هو الغالب على السياقين.

وفي الدعوة إلى الحمام تبدو صفاته الحسنة للترغيب في زيارته فنجد بيتين للسري الرفا أوردهما الثعالبي في بيان صورة الحمام التي يدعو إليه الشاعر صاحبه: (الثعالبي: ٨٣)

أســـعيدُ هـــل لـــك في زيـــارة منـــزلٍ تثنـــي عليـــه جـــوارح الـــزُّوارِ
بيـــتٌ تـــرى الجـــدران فيـــه منابعـــا وتـــرى الســـماء كثـــيرةَ الأقـــمارِ

الصحبة

في ديوان ظافر الحداد نجد قصيدة عنوانها من أحد عشر بيتا في (الصحبة إلى الحمام) تبدأ ببيت في الصحبة وتنتهي ببيت يشير إليها راجيا أن يقضي عمره فيها صباحا ومساء والأبيات السبعة داخل القصيدة في وصف الحمام وتجسيده على النحو الذي يُرغَّب في ارتياده فالوصف يشبه وصف الطبيعة المفتوحة وملامحها التي تشبه ملامح الرياض ولا يقتصر على وصف مكان مغلق، يقول ظافر (ديوانه: ٢٢٣ – ٢٢٤)

لله حمّـــــامٌ كـــــروضٍ أنيـــــق رافقنـــي فيـــه رفيـــــقٌ رفيـــــقْ
صـــــفا لي العـــــيشُ بهـــــا مـــــثلما صـــفا لقلبـــي ودُّ ذاك الصـــديقْ / ...
فقـــــد ودِدنـــــا أن أعمـــــــارنا فيهـــا صـــبوحٌ دائـــمٌ أو غبـــــوقْ

ولابن مطروح ت ٦٥٩ هـ في الصحبة مع شيخ الشيوخ والسراج الوراق ت ٦٩٥ هـ (ديوان ابن مطروح، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م: ٦٢)

رافقنـــي فيـــه رفيـــــقٌ رفيـــــقْ
صـــفا لقلبـــي ودُّ ذاك الصـــديقْ / ...
فيهـــا صـــبوحٌ دائـــمٌ أو غبـــــوقْ
هـــي جنّـــةٌ وســـــراجُها عمـــــرُ

ونادرا ما تؤدي الدعوة إلى نتائج غير مقبولة فتؤدي الدعوة إلى الحمام إلى عذاب المدعو ومن ذلك قول ابن نباتة ت ٧٦٨ هـ: (الغزولي. ١٤٤، العساف : ٧)

دعـــــاني صـــــديقٌ لحمّامـــــه فـــأوقعني في العـــذاب الأليـــــمْ
كـــــلامٌ يزيـــــد ومـــــاءٌ يقـــــلُّ فبـــئس الحبيـــبُ وبـــئس الحمـــيمْ

المسلمون وأهل الذمة

من الأخبار التي ترددت في كتب التاريخ فيما يرتبط بالحمام ما ورد في أخبار الحاكم بأمر الله الفاطمي أنه اشترط أن يتميز النصارى بوضع الصلبان في أعناقهم أثناء دخول الحمام ويتميز اليهود بوضع الجلاجل كما منع نساء أهل الذمة من الاختلاط مع نساء المسلمين في الحمامات ثم أمر ببناء حمامات خاصة بالنصارى توضع عليها الصلبان وبناء حمامات خاصة باليهود توضع عليها القرامين.ويمتد ذلك في عهد الأيوبيين حيث يذكر المقريزي في الحديث عن حمام الصوفية منع دخول أهل الذمة إليها يقول (هذه الحمام بجوار الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء أنشأها صلاح الدين يوسف بن أيوب لصوفية الخانقاه وهي إلى الآن جارية في أوقافهم ولا يدخلها يهودي ولا نصراني) [١٣]

٥ – ٢

التمثيل الحضاري

كان بناء الحمامات أساسا في تخطيط المدن حيث عدّه العلماء من المرافق السبعة اللازم وجودها في المدينة فقد جسدت الحمّامات ظاهرة حضارية ترجع إلى مصر الفرعونية والحضارات القديمة وقد ظلت آثارها في الحضارة الرومانية والإسلامية حتى الآن وتصمم الحمامات في معظم الثقافات على أربع غرف، وفي اليمن على ثلاث. (القلقشندي: ٢ / ٤٢٩)

وفي موقع بناء الحمامات كان يراعى قربها من مصبات المياه حتى تصلها مياه النهر بسهولة، أو بالقرب من بئر، ويستحسن الحمام كلما قرب من النيل أو الآبار ويستكره إذا بعد عنهما، وأفضلها ما كان على الشط وإذا خرِب الحمّام يخصص البئر لحمام آخر، وكثيرٌ منها شيد بالقرب من الجوامع، وبعضها بجوار رحبة مثل حمام خوند بجوار رحبة خوند

وبعضها بجوار فندق مثل حمامي طغريك اللذين أنشأهما الأمير حسام الدين طغريك المهراني أحد أمراء الدولة الأيوبية (المقريزي: ٣ / ١٤٨ - ١٤٩، المقدسي:: ١/ ٧٧، العساج : ٤)

وتصير بعض الحمامات بعد خرابها مصنعًا أو تتحول إلى بيتٍ لأحد القضاة أو الوزراء أو يهدم ويضم إلى بيت أحد الأمراء و كثير من الحمامات كانت ملكا لأسرة ثم أصبحت وقفا (المقريزي ٣ / ١٤٧ – ١٤٨، الحبازي. مج ٢٧ عدد ٣+٤ ٢٠١١م : ١٢٠- ١٢١)

وقد تميزت حمامات مصر عن غيرها بشهادة المؤرخين قديما ؛ وفي وصفها وما يبين سريان الماء وكيفية امتزاجه قبل لقاء جسم الإنسان، وما يؤكد هندسة تصميم الحمامات في مصر ويصف عبد اللطيف البغدادي ت ٦٢٩ هـ بدقة معللا رأيه. (البغدادي: ٣٩ – ٤٠) ومن الأشياء التي تستخدم في الحمامات، وطينها يستخرج من مصر (النشفة) وهي في لسان العرب (النَّشَفَة، بِالتَّحْرِيكِ وَقَدْ تُسَكَّنُ، وَاحِدَةُ النَّشَف **وَهِيَ حِجَارَةٌ سُودٌ كأَنها أُحْرقت بِالنَّارِ وَإِذَا تُرِكَتْ عَلَى رأْس المَاءِ طفَت وَلَمْ تغُص فِيهِ، وَهِيَ الَّتِي يُحَكُّ بِهَا الْوَسَخُ عَنِ الْيَدِ وَالرِّجْلِ**) (ابن منظور. ٩/ ٣٣٠ مادة: نشف)

ومن عجائب الحمامات ما ذكر من وجود حمام فوقه حمام آخر (المقدسي: ٢٠١)

ومن الظواهر التي تكشف عن بعد اقتصادي اختلاف الموارد الاقتصادية والتي تستبدل في إقليم بمورد آخر يتحدث المقدسي في أحسن التقاسيم عن المغرب ويبين كيف يستبدل أهل مصر النوشاذر بدخان الحمامات (ويرتفع من أصقلية نوشاذر كثير أبيض وسمعت أنه قد انقطع معدنه واستغنى عنه أهل مصر بدخان الحمامات) (المقدسي.١ / ٢٣٩ – ٢٤٠)

الجـــدران وثائق حضارية:

من الوثائق الحضارية الخاصة بأدب الحمامات،أن أبياتا من الشعر تُكتب على باب الحمام كما تُكتب على جدرانه، وبعض أبيات الشعر تكتب على الأدوات المستخدمة في الحمام ؛ مثل كتابة أبيات على مشط سلطان في حلب (الحبازي ٢٠١١م: ١٣٣)، والشِّعر بذلك يستنطق الحمام وأدواته ليتحدث عن نفسه ويخلد النسق الحضاري الذي يمثله.

ومن الأشعار التي كتبت على الجدران **ما كتب من شعر ظافر الحداد على حمام الكافوري يقدم** صورة مثالية للحمّام من تصميم ومياه وعطور وطيور ومغنيات، وتختتم

باسم الإمام أو الأمير الذي بُني في عهده الحمام وتبدو الأبيات من شعر الوصف موضحة صوت الشاعر ورؤيته التي تصور الحمام عروسا في أبهى ثيابها، روضة تزدان بالشموس والبدور والنجوم، وماؤه مطر بدون غيوم، وبخاره كأنفاس الحبيب، والطيور والقيان مما تتجلى معه قيمته للحكماء الذين يجيدون التأمل.ومن شعره فيها: (ديوانه: ٢٧٢)

صحةٌ في سلامٍ ونعيم ... وبقاءٌ في عز ملك مُقيمِ
طاب هذا الحمّام واجتمع الحسـ ... نُ إليه في جملة التقسيمِ
فهو مثل العروس تُجلى على الأبـ ... صار زهوًا في حُلّةٍ من رقيمِ
فيه حسنٌ بادٍ وحسنٌ خفيٌ ... ليس يبدو إلا لكل حكيمِ...
الإمام المنصور أكرم مخلـ ... قٍ وقولي على سبيل العمومِ

ومن العادات التي جرت من أصحاب الحمامات أن يثبت على مدخل الحمام **بلاطة تحفر عليها أبيات من الشّعر تؤرخ لبنائه،** ومنها أبيات كتبها ناصر بن الحسين وأمر بأن تُعلق على باب الحمّام الذي أنشأه أحد الأمراء في بيروت تبدو أيضا فيها الصفات المثالية للحمّام وكأنها تمثل دعوة صريحة لارتياد هذا الحمام وفي الانتقال إلى المديح تجسيدٌ للقيمة الحضارية للحمام الذي يتحول إلى صحيفة إعلانية ترصد مدح الأمير. (صالح بن يحيى: ص ١١٧)

وحمام يروق العين حسنا تحيط ... فيه المسرة والنعيمُ
يريك الماء يسرح فوق درٍّ ... تزل به لمنظره الهمومُ...
به أمن الشآم وساكنوه ... وطيبةُ والمشاعر والحطيم

وبينما نجد أبيات ظافر تصف حسن الحمام وإشارة إلى الأمير في نهاية الأبيات، نجد أبيات ناصر بن الحسين تخصص ثلاثة أبيات مقدمة القصيدة للحمام وثمانية أبيات في المديح والمعجم مديح تقليدي لم يحد عن وصف الممدوح بالسيف والرمح والدرع وتختتم القصيدة بالدعاء للممدوح.

وكما كتبوا على جدران الحمام كتبوا على أدواته ويشار كذلك إلى أحد الحكام

و(مما قيل في المشط إذا كان من لوازم الحمام وقال شرف الدين بن الحلاوى وقد طلب منه ثلاثة أبيات تكتب على مشط برسم سلطان حلب الملك العزيز محمد بن الظاهر

غازي:

وحمامٍ يروق العين حسنا تحيط ... فيه المسرة والنعيمُ
يريك الماء يسرح فوق درٍّ ... تزل به لمنظره الهمومُ...
به أمن الشآم وساكنوه ... وطيبةُ والمشاعر والحطيم

حللتُ من الملك العزيز براحةٍ غدا ... لثمها عندي أجلَّ الفرائض
وأصبحتُ مفترّ الثنايا لأنني ... حللت بكفٍ بحرها غير غائض
وقبلت سامي خده بعد كفه فلم ... أخل في الحالين من لثم عارض)

(الغزولي: ١٤٥)

٦ – ٢

التمثيل العلمي:

يكشف تصميم الحمامات عن نسق علمي بارز في المجتمع العربي، حيث تبنى الحمامات على قواعد ومبادئ علمية تحقق الصحة البدنية والنفسية، فالنسق بالمفهوم العلمي يعني (نظاما متكاملا من الأبنية النظرية يكونها الفكر حول موضوع ما) (جميل حمداوي. ٢٠٠٦م: ص ٨) وتشفع غالبا بالأدلة والبراهين.

ولما كان غرض الاستشفاء أساسا في الذهاب إلى الحمام كيف كان تصميمه صحيا حيث يشبه المشفى، ويورد صاحب غذاء الألباب فكرة بناء الحمامات في نسقها العلمي وبيان الفائدة الصحية لها في عدة نقاط: **أولها** درجة سخونة الماء، وكذاك سخونة الهواء، **وثانيها**: ارتفاع مكان الحمام نفسه، ثم تفضيل الحمام القديم على الحديث، **ثم** النصح بأن يكون دخول الحمام والخروج منه تدريجيا حتى يألف صدره الهواء الذي ينتقل إليه، **وكذا** تفضيل النوم بعد الحمام. وينسب الأقوال إلى الأطباء مما يؤكد أن العلاقة بين الحمام ومرتاديه قائمة على أساس علمي ويعلل أقواله. (السفاريني: ١/ ٣٩٥)

وفي اتّباع بعض النصائح شفاءٌ، يقول: (والأولى أن يغسِل قدميه وإبطيه بماء بارد عند دخوله ويلزم الحائط ويقصد موضعا خاليا ويقلل الالتفات ولا يطيل الالتفات إلا بقدر الحاجة، ويغسل قدميه عند خروجه بماء بارد فإنه يُذهب الصداع) (السفاريني: ١/ ٣٩٥)

وللدقة العلمية في تصميم الحمامات وموقد الحرارة وتجهيز الماء فيها شبهوها بعملية هضم الغذاء عند عبد اللطيف البغدادي (البغدادي: ٤٠)

ولنا الآن أن ندرك جانبا حضاريا مُهِمّا يدل على سببٍ للازدهار الذي شهدته الحضارة الإسلامية تتضافر فيها مجموعة من الأنساق العلمية والاقتصادية والاجتماعية في منشأ حضاري قدّم فضاءً مهيأ لكل المعاني والصور التي سيقت فيه وعنه.

١ – ٣

النسق الجمالي المرجعي

من الظواهر التي تكشف عن أهمية المرجعية الجمالية في أدب الحمامات أننا نجد العلاقات الجمالية في الكشف عن هذا الفضاء المكاني تشمل أنواعا أدبية ونماذج شعرية متنوعة كما تجسّد مواضع من براعة الوصف نثريا في وصف الحمامات فيدخل غرض الوصف في مجال جديد ثم يسهم النسق الجمالي هنا في تشكيل رؤية جديدة للعلاقات بين أركان الصورة المجازية في التصوير فنجدهم قد نظموا في الحمامات من الأنواع الأدبية في (الشعر والرجز والمعارضات الشعرية والأمثال والنوادر والزجل) كما تجسّد فن الوصف عن الحمامات في الكتابة بكتب الجغرافيا والتاريخ والخطط، على نحوٍ لا يمكننا فيه الحكم بأدبية الأسلوب تماما أو علميته لما يحققه لنا من متعة أثناء القراءة وفي صور التعبير هذه غدا المعجم الأدبي التقليدي بمعانيه المعنوية مجالا دلاليا يستعان به في تقريب الصورة الواقعية والمعاني الخاصة بها في أدب الحمامات ثم نتساءل عن هذا النسق وعلاقته بالقصيدة التقليدية فنجده يسهم في معاني المديح في القصيدة مما يؤكد توظيف الظاهرة في جوانب أدبية شتى.

أولا: الأنواع الأدبية

يأخذ **الشعر** المكانة الأولى في التمثيل الثقافي للحمامات حضاريا واجتماعيا، وقد سبق عرض نماذج عديدة منه تنوعت بين القصيدة والمقطوعة وتتنوع أوزانه مع غلبة الأوزان القصيرة و المجزوءة على المستويين الرسمي والشعبي فبعضها مجهول القائل.

وتضاف إلى الشعر أنواعٌ أخرى هي:

الزجل

الزجل لغويا الصوت، واصطلاحيا نظم (لا يلُتذ به ولا تفهم مقاطع أوزانه ولزوم قوافيه حتى يغنى به) (صفي الدين الحلي ٢٠٠٣ م: ٥)

من البحوث التي قدمت لفكرة الحمام بحث رائد عبد الرحيم عن النصير الحمامي وقد أورد له أزجالا يصف فيها حمّامه ويشكو قلة الرواد وسوء الحال ومنها:(رائد عبد الرحيم: : ٩٧٢ – ٩٧٣)

حمـــــام الأديـــــب العـــــارفْ مـــا يجـــري وحالـــه واقـــفْ...
خـــــذوا مـــــن نصـــــير الديـــــة وإلا انثنينـــــــا نتناصـــــــفْ

الكان وكان

الكان وكان: (له وزن واحد وقافية واحدة ولكن الشطر الأول أطول من الثاني ولا تكون قافيته إلا مردوفة قبل حرف الروي بأحد حروف العلة) (الحلي: ١١٥)

وهو من صور الإبداع في أدب الحمامات وفيه نجد مقطوعة تجذب موضوع الحمامات إلى الشعبية وتمثل نموذجا أول في النظم على الكان وكان في الحمام عند ابن سعيد المغربي ومن الطريف أنها تعكس غزلا بزوار الحمام وهو ما رفضه النسق الديني يقول (ابن سعيد المغربي، المقتطف من أزاهر الطرف. ١٤٢٥هـ ج١: ٢٤٣- ٢٤٤)

-**إن كان** معك عين فانظر وأبصر تراشماعك البدر يا قوم خارج من داخل الحمامْ...

-مثل الربيع زمان أو مثل ليلى بالوصال يا رب ما أملح العذار حين انعطف الكلام

يبدو النسق الجمالي في هذا النوع أكثر تحررا في التعبير من الشعر حيث التصريح بالغزل برواد الحمام ومخالفة آداب الحمام كما سبقت في النسقين الديني والاجتماعي

الكتابة الفنية

بعض الأقوال النثرية في مدح الحمام وذمه صيغت بلغة فنية مسجوعة ومحتوى طريف، لذا نجده يبرز في موضوعات كتاب اللطائف والظرائف للثعالبي وقد جعل مدح الحمام وذمه من موضوعاته، وأورد فيها أقوالا لسابقيه، فأورد أقوالا في مدح الحمام منها لفضل الرقاشي: (نعم البيت بيت الحمام، يذهب القشافة ويعقب النظافة، ويجشيء

التخمة ويطيب البشرة) ويورد الثعالبي قوله في كتابه (المبهج): (الحمام صيقل الأجسام ونظام النظافة ودفع آفة القشافة)

ثم يورد الثعالبي (ولما مدح الرقاشي الحمام بما تقدم، قيل له: ذمه: فقال: بئس البيت الحمام، يهتك الأستار، ويذهب الوقار، ويؤلف إلى الأطياب الأقذار) (الثعالبي: ٨٣ – ٨٥)

تبدو إذن طرافة موضوع مدح الحمام وذمه والتعبير عن ذلك فنيا، وبرغم خصوصية المعجم وبعده عن جماليات التعبير المألوفة وشعريته فإن التعبير بدا فنيا في توازن العبارات وقصر الجمل وسجعها.

المفاخرات والمعارضات و المناظرات

يؤكد أدب الحمامات على ازدهار الحمامات حضاريا حتى تبارى الشعراء في المفاخرة بحمامات إقليم على إقليم آخر ومن ذلك ما يروى من مفاخرة ابن نباتة المصري بحمامات مصر على حمامات الشام ورد عز الدين الموصلي عليه، يقول ابن نباتة (الغزولي. ١٤٤، العساج : ٥)

أحـــــواض حمـــــام الشـــــآم ألا اســـــمعي لي كلمتـــــينْ
لا تـــــذكري أحـــــواض مـــــصر فأنـــــت دون القبلتيـــــن

ورد الموصلي:

إليـــك حيـــاض حمامـــات مصر ولا تتكثـــري عنـــدي يمـــين
حيـــاض الشـــام أحـــلى منـــك مـــاءً وأظهـــر وهـــي دون القُلتـــين

ومنه ما ينسب إلى محمد بن جابر من رجز سماه (نزهة الناظر) ويعارضه أحمد بن سعيد الغفجسمي في حديث عن حمام بناه مهاجر إسباني بمكناسة الزيتون في المغرب يعرف بـ (ابن أخت الفْنش) يقول فيه ابن جابر (عز الدين المعيار: ١٦)

وإنـــما الحـــمام كـــان الفـــنش ذاك الـــذي إذ كـــان كـــان العـــيشْ

يعارضه الشيخ الخطيب أحمد بن سعيد الغفجسمي مبينا أن مخالفة النسق الديني كانت سببا لخراب الحمام

هنـــاك حمـــامٌ بنـــــاه الفُنـــــش وهـو الـذي قـد كـان فيـه الفحـشْ...
كـــذاك عقبـــى كـــلّ شـــــكلٍ زاوٍ حِيـــد بـــه عـــن طـــاعة الإلـــه

ومما أورده المقري ما يؤكد أن الحمام ملتقى ثقافيٌ يطارح فيه الشعراء بعضهم البعض ليجيز أحدهم شعره يقول (ودخل ابن بقي الحمام وفيه الأعمى التطيلي، فقال له: أجِز

حمامنـــا كزمـــان القـــيظ محتـــدمٌ وفيه للبرد ضرٌّ غير ذي ضررِ

فقال الأعمى

ضدان ينعم جسم المرء بينهما كالغصن يـــنعم بـــين الشـــمس والمطـــر)

(المقري: ٣/ ٣٤٧)

الأمثال

غلب التعبير العامي على الأمثال في أدب الحمامات وشاعت بعض القصص التي تجسد مورد المثل ومن أشهرها قصة من الواقع المصري عن الحريق الذي شب في إحدى الحمامات وفي سياقه قيلت عبارة (اللي اختشوا ماتوا) حيث خرج الناس عراة فنجوا بينما هلك من استحيا وبقي داخله وصارت مثلا (العساف.: ٥)

النوادر والملح والألغاز

تروي لنا كتب الأدب والطرائف بعض الأخبار الخيالية الأسطورية التي تحمل طرافة تجعلها من نوادر الأخبار، يروي صاحب غذاء الألباب تحت عنوان: مطلب في الحمام وكيفية الدخول فيها والاستحمام نادرة عن **السيوطي** في أوائله ويُتبع الخبرَ بقصة طريفة محاولا توثيقها برغم اشتمالها على حوار بين النبي سليمان وبلقيس والجن

ومن النوادر (أن أحد موظفي الحمام دلك رجلا طويلا، فلما فرغ من رأسه وكتفيه استأذنه قائلا خاطرك يا سيدي أريد السفر إلى قدميك) (العساف : ٨، السفاريني. ج١: ٣٩٤-٣٩٥)

وهناك بعض الألغاز والنوادر الفكاهية التي أوردها صاحب مطالع البدور منها ما

رواه عن ركن الدين الوهراني في توظيف اسم الممدوح المشبه للموسة المستخدمة في الحلاقة لنيل العطاء حينما حلق لشخص مهم وهو خال صلاح الدين الأيوبي (الغزولي: ١٤٥)

المقامة

المقامة من الأنواع الأدبية التي تعرض لصور متنوعة من المجتمع بعضها تمثل نسقا مقبولا وبعضها يقدم نسقا مخالفا للتقليدي وهو الغالب على جوهر المقامات ملاءمة لمفهوم الاحتيال الذي تقوم عليه المقامة

ومن الصور التي عرضت لها المقامات صورة الحمام والقائمين على العمل فيه ومنها يتأكد لدينا النسق الحضاري للحمام بالصفات التي يمدح لأجلها من السعة والنظافة والهواء الطيب والماء المعتدل ترد في مقامات البديع الهمذاني (مقامات البديع الهمذاني ١٩٢٣ م: ٢٢٣ – ٢٣٥)

وتضيف المقامة صفات الحجام وهو أحد النماذج التي يقدمها الحمام لمرتاديه ومن الصفات المفضلة أن يكون الحجام (خَفِيفَ اليَدِ، حَدِيدَ المُوسَى، نَظيفَ الثِّيابِ، قَليلَ الفُضُولِ)

وكذلك هنا تظهر صورة الحمامي صاحب الحمام وهو من يُلجأ إليه لتسيير العمل به وفض ما ينشأ من خلافات بين العمال حول مرتادي الحمام.

ومما تتميز به المقامات أنها تقدم مفارقة تجمع بين الصفات المستحسنة للحمام الموجبة للمديح وبين الصفات المرذولة التي توجب الذم في المقامة ذاتها وتتجسد في صفات الحجّام وغلاظته في أداء عمله ثم النزاع حول الشخصية من أجل المال الذي سيكسبه الحجام منها (الهمذاني: ٢٢٥)

٢ – ٣

ثانيا: مرجعية الأدب الرسمي والتشبيه المقلوب

التمثيل الثقافي لأدب الحمامات يجعل من مجال التشبيه الذي طرقه الشعراء في معجم الغزل مرجعا للشعراء لتقريب الصورة المادية على غير المعتاد، ويرسخ للنسق

الثقافي في تمثل النسق الاجتماعي للحمام والتأكيد على طبقات المجتمع الذين يرتادوه فيصف ظافر الحداد الماء في الحمام لغزارتها وصفائها تشبه أدمع المهجور (ديوانه: ١٣٣-١٣٤)

والمـــــــاء صـــــــافٍ غزيـــــــرٌ كـــــــــأدمع المهجـــــــــورِ

ويضيف النسق في الحمامات إلى كلام الفم والعين كلام الأنامل حينما يؤدي القيم عمله (محمد زغلول سلام: ٢ / ٣١٦)

وقـــيم كلمـــت جســـمي أناملـــه بغير ألسنة تكليم خرصان
فلـــيس يمســـك إمســـاكا بمعرفـــة ولا يسرح تسريحا بإحسان

تبدو الصورة هنا جميلة لجدة التصوير ثم تعقبه التورية التي أفادت من القرآن الكريم في حالتي الإمساك والتسريح والمقابلة مع اختلاف حقلي التصوير.

- الحمّام يشْبِه الخمر في أثره فإدمان الحمام كإدمان الخمر يستوجب توبة، و يرجى الاعتدال في ارتياد الحمام مثل الإفادة من الخمر بالمنفعة فيها يقول ظافر: (ديوانه:ص ٢٠٢)

لا تُشـــبهُ الحـــمّامُ في وضـــعِها إلا حميـــا الخمـــر في طبعهـــا
ففيـــــــهما منفعـــــة جـــــزلة وإثمهمـــــــا أكـــبر مـــن نفعهـــا
فتلـــك هتـــك العقـــل في شربهـــا وتلـــك هتـــك الجســـم في نزعهـــا

المقابلة البارزة بين الجنة والنار، والصورة التي أفاد فيها ظافر الحداد من أبي تمام من جمع الحمام بين النهار والنجوم والظلام والشموس تجعل من الحمام فضاء باعثا للإبداع الشكلي والوظيفي يقول (ديوانه: ٢٧٣)

واعجبـــا مـــن جنـــةٍ في ضرام وروضـــة زاخـــرة في رخـــامْ
تـــدعى بحمّـــامٍ عـــلى أنهـــا تحيـــا بهـــا الأنفـــس بعـــد الحِمـــامْ
قـــد كمُلـــت حســـنا فأوصـــافها يعجـــز عـــنهن فصيـــحُ الكـــلامْ
فيهـــا نجـــومٌ في نهـــارٍ بـــدت شـــموسٍ أشرقـــت في ظـــلامْ

ومن المقابلة ما يتداخل فيه حر الجحيم وبرد النعيم والثواب في العقاب والنعيم في

الجحيم ما ينسب للثعالبي (الثعالبي: ٨٤)

وحمـــامٍ لـــه حـــر الجحيـــــم ولكـــن شـــابه بـــرد النعيـــــم
رأيـــت بـــه ثوابـــا في عقـــاب وزرت بـــه نعـــيما في جحـــيم

وتجتمع المقابلة مع روعة التشبيه في وصف الحمام فالحمام جنة في نار. والحمام روضة بكل ملامحها حيث يتمتع بأهم سمة وهي حرارته الشديدة ومعها صفات الحسن في الحمام تجعله روضة تفيض نعيما النور يشبه نور الشمس والقمر والزينة وصفاء الماء وغزارتها تشبه دموع المحب الذي هجرته الحبيبة، واتساع أحواضها كالوديان وبريق أدواته يشبه بريق البللور وزكاء عطره ونقش جدرانه ونعومة رخامه كالحرير كل ذلك يحبب البقاء فيه لأبعد مدى وفي اثني عشر بيتا يبدؤها ظافر بقوله (ديوانه:١٣٣- ١٣٤)

وروضـــــــةٍ في هجـــــــيرٍ وجنّـــــــةٍ في سـعيـــــــرِ
خُصـــــت بكـــــلّ نعيـــــمٍ ولـــــــذّةٍ وســـــــرورِ

اجتماع الأضداد يتنامى حتى يجمع الشموس والبدور والمقابلة بينهما والمقابلة بين الحسن الخفي والحسن البادي (ديوانه: ٣٧٢)

وشـــموس قـــد جاورتهـــا بـــدور ونجـــوم لكـــن بغـــير رجـــومِ

مجالات التشبيه الخاصة بالحمام متعددة كما ورد بالأبيات فالحمام جنة والحمام نار والحمام روضة والحمام خمر ثم يستعان بمفردات تجربة الغزل والوصف في تشخيص مفرداته

وقد أبدع الشاعر الحمامي في التورية عندما تحدث عن غيبة السراج بعد دعوته إلى حمامه

وكـــدّرت حمـــامي بغيبتـــك التـــي تكـــدّر مـــن لـــذّاتها صـــفوُ مشـــربي
فـــما كـــان صـــدرالحوض منشـــرحا بـــه ولا كـــان قلـــبُ المـــاء فيهـــا بطيّـــبِ

الغياب يكدر الحمام، والصدر يورّي بها عن النفس ويقصد بها كذلك حوض الماء وقلب الماء داخله وقلبه سكبه أيضا.

ومن جماليات النسق في شعر الحمامات أن بعض الصور فيها قامت على التشبيه المقلوب حيث يُعرَف المعنى المحسوس بتشبيهه بالمعنى المعنوي الذي عبر شعراء الغزل والفخر والحماسة وتنعكس في تجربة الشاعر التي يحسها إحدى تجاربه كما يعبر عن تجربة الحب أو الفخر،ويتنوع التعبير عن الحمامات بين وصف حسي للفضاء وبين عرض لتجربة خاصة، هكذا يبدو تعبير ظافر الحداد في اثني عشر بيتا نورد منها الآتي (ديوانه: ٣٠١-٣٠٢)

دخلتُ حمامًا على غِرة ... لمّا دعاني سوءُ حظٍ وحينْ
توفُرا منّي على راحةٍ ... أحظى بها إثر كلالٍ وأينْ
فنلتُ منها كل ما ساءني ... من همِّ نفسٍ ثم إسخانِ عينْ...
فلعنة الله على عالمٍ ... أو جاهلٍ يدخلها مرتين

وكما عبر ظافر نجد أبا محمد البطليوسي يتفق معه في تحويل معجم الحب و تجربة الزهد في هذا الفضاء إلى مجال للتشبيه المقلوب حتى تصل المعاني لهذا التعبير في موضوع مهمش ليس من الموضوعات التي ألفها الشعراء يقول: (العساف: ٧)

أرى الحمّام موعظةً وذكرى ... لكلّ فتى أريبٍ ذي ذكاءِ
يذكِّرنا عذابَ ذوي المعاصي ... وأحيانا نعيمَ الأتقياءِ...
كأن له حبيبًا بان عنه ... فبان وخانه حسنُ العزاءِ

٣ - ٣

- جدّة التصوير:

العلاقات التي يصورها الأدباء في موضوع الحمامات واقعية يغلب عليها الإطار الحسي ومن هنا جاءت صعوبة التصوير حتى يوصف التصوير فيه بالجمال أو الندرة والابتكار كما أن المعجم التصويري للحمامات ليس شائعا لطرافة الموضوع وجدته ولهذا كان تقييم الشعر المنتج عنه موضع استهجان أحيانا ومن الأخبار التي تبرز ذلك ما يروى بين ابن وزير وابن الوردي (وقال ابن وزير يشبِّه الماء على الرخام).

لله يـــــومٌ بحمّـــــامٍ نعمـــــتُ بـــه والماء من حوضه ما بيننا جارى
كأنـــه فـــوق شـــقات الرخـــام ضـــحى ماءٌ يسيـــل على أثواب قصـــار

فقال ابن الوردي يهجوه

وشـــاعر أوقـــد الطبـــع الـــذكاء لـــه فكـــاد يحرقـــه مـــن فـــرط أذكـــاء
أقـــام يجهـــد أيـــامـــاً قريـــحته وفسرـــ المـــاء بعـــد الجهـــد بالمـــاء)

(الغزولي: ١٤٤)

ولذلك تبدو جدّة التصوير في تصوير بيئة الحمام بملامح واقعية تمزج بين الحسي والمعنوي

ومنها الإتيان بصورة جديدة يشبه فيها تصبب العرق من جميع الجسم بالبكاء بجميع أعضاء الجسم، وهي صورة ملائمة لوصف الحمام وما يحدث بداخله أي إنها صورة محمودة وليست مكروهة أو مذمومة وفي ذلك يورد النويري (وأنشدني جمال الدين محمد بن الحكم لنفسه (النويري ١/ ٤١٦، الغزولي: ١٤٣)

قـــالوا: نـــراك دخلـــت حمامـــا ومـــا حلـــف الهـــوى يلتـــذ بـــالأهواءِ
فـــأجبتهم: لم تكـــفِ أدمـــع مقلتـــي حتـــى بكيـــتُ بجملـــة الأعضـــاءِ)

وفي المعنى نفسه البكاء بجميع الأعضاء يورد الغزولي في مطالع البدور جملة من الأبيات لابن رشيق و صدر الدين بن الوكيل و شمس الدين محمد بن سمنديار الذهبي

وتتولد صور جديدة تنبع من مخيلة العامة فيشبه الحمّام بالموت عند ابن الوردي في التجرد عن المال والملبس والأهل (المقري: ٣/ ٣٥١)

ومن الغرائب أن يشبَّه الحمام **بالكعبة** (المقري ٣: / ٣٥٢) في قول الشهاب ابن فضل الله:

وحمـــــامكم **كعبـــــةٌ** للوفـــــود تحج إليه حفـــاةً عراه
يكـــــرّر صـــــوتُ أنابيبـــــه كتابَ الطهارة بابَ المياه

٤ – ٣

أدب الحمامات وأغراض الشعر التقليدية

من المعاني التي تضاف إلى قصيدة المديح أن يتوجه الشاعر إلى الممدوح بعد أن يخرج من الحمام فيبين مدى أهمية الممدوح عند الشاعر ويكون الحمام هو النعيم والممدوح نعيما، ولو كان الحمام سيئا لكان الخروج من الجحيم (الحمام) إلى النعيم يقول ابن مطروح (ديوانه: ٥١)

خرجت من النعيم إلى النعيم إلى المولى الكمال ابن العديم
ولولا أن أسيء لقلت إني خرجت من الجحيم إلى النعيم

وكما أوردنا لناصر بن الحسين في نسق الجدران نجد أن القصيدة تعلق على باب الحمام فتبرز محاسنه ثم تنصرف إلى مدح الأمير ويصبح باب الحمام صحيفة إعلانية تدعو إلى زيارة الحمام كما تخلد ذكر الأمير (صالح بن يحيى: ١١٧ – ١١٨)

نتائج البحث

- قدم البحث موضوعا في غاية الجدة والبكارة بشهادة الباحثين.
- لم يكن وصف الحمامات العامة ضمن موضوعات الشعر التقليدية، ولكنه ينطلق من صميم الحياة وطبيعة البيئة فيتفق الشعراء في كثير من معانيه ويقدمون علاقات متشابهة ويتفردون ببعضها.
- ربط بين أحد موضوعات الشعر والدراسات المنهجية الحديثة التي تبين تمثيل النسق في الأدب.
- كشف عن لون من التأليف لم يلق اهتماما في الدراسات الأدبية يتضمن النصوص موضوع الدراسة بعناوين مميزة عن الموضوعات المألوفة.
- ربط بين مجموعة علاقات – تبدو متنوعة مختلفة– في منظور واحد يحمل أبعادا حضارية ودينية واجتماعية وثقافية.
- أبرز موضوعا مكررا لدى شاعر لقي اهتماما بينما لم تشر الدراسات إليها مثل قصائد ومقطوعات ظافر الحداد عن الحمامات.
- أبرز أشعارا متناثرة بكتب الأدب مثل نهاية الأرب للنويري لم ترد في ديوان الشاعر

كابن خفاجة، وكتاب اللطائف والظرائف للثعالبي أورد شعرا لابن المعتز ولم يرد في ديوانه.

- قدم رؤية متكاملة حول الأنواع الأدبية التي تمثلت النسق الاجتماعي في أدب الحمامات من شعر(وصف ومعارضات) وزجل وكان وكان وكتابة فنية ونوادر ومقامات.
- كشف عن مرجعية النسق الثقافي وتكامله مع النسق الاجتماعي والديني في التعبير عن أدب الحمامات والنسق الحضاري في وصفها.
- مهد للكتابة عن الموضوعات النادرة والمهملة في الدراسات الأدبية.
- أبرز العلاقة بين هذا الموضوع الشعري وأغراض الشعر التقليدية من مدح وذم ووصف.

-أبرز موقع ذكر الحمام في بناء القصيدة التقليدي إضافة إلى استقلاليته بقصيدة.

شعر الحمامات لا يصنف في غرض الوصف فقط وإنما يتسع إلى المديح والهجاء والشعر التاريخي.

الهوامش:

١- في مفهوم الإيديولوجيا بوصفها نسقا، انظر: يوسف محمود عليمات. تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن ط١ ٢٠١٥م ص١٥- ١٦.

٢- عبد الرحمن عبد الدايم. النسق الثقافي في الكناية، رسالة ماجستير قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولود معمري الجزائر، ٢٠١١م: ص ١٤، ويتفق هذا المنظور إلى أدب الحمامات مع مفهوم الأطر السوسيوثقافية عند د. سامي سليمان: انظر كتابه: التمثل الثقافي وتلقي الأنواع الأدبية الحديثة تجربة النقد العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مكتبة الآداب، ٢٠١٦ م، ص ٦٥

٣- في تفصيل القول حول الحمامات أول من ذكر الحمامات في كتب التاريخ في مصر ينظر: ابن عبد الحكم. ج١ ١٤١٥ هـ ص.: ١/ ١٠٦

٤- النويري، أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية ط١ – ١٤٢٣هـ ج٣٣: ١/ ٤١٥ وفيه: يدخله ملتمسٌ لذة، ولم أجدها في ديوان ابن خفاجة الأندلسي.

٥- اللطائف والظرائف: ٨٥ – ٨٦، ولم أ جد أبيات ابن المعتز في ديوانه، ديوان الصنوبري، الصنوبري، أحمد بن محمد الحسن الضبي. ديوانه، ت: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج٢ ط١ ١٩٩٨م.:٢ ص ٣٨٢ ج

٦- ديوان ظافر: ٢٦٩، الأصفهاني، العماد محمد بن محمد. خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) ت: أحمد أمين، شوقي ضيف، إحسان عباس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٥م: ج٢ ص٧، وفي الخريدة: البيت الأول (حرف) بدلا من (صحف)، وفي البيت الثاني (تجمع) بدلا من (أقل)، وانظر مثلها: ديوان ظافر: ٣٠١ – ٣٠٢.

٧- الثعالبي: اللطائف والظرائف: ٨٣-٨٤، النويري: نهاية الأرب: ١/ ٤١٥- ٤١٦، وعند الثعالبي: للبخار مجللا، وفي إضاءة الحمام وما ينبغي فيها من الإضاءة من كل جوانبه انظر: ديوان ابن مطروح: ٦٢

٨- انظر: اللطائف: ٨٤، واليتيمة: ١ / ١٣٣ – ١٣٤ وفيها يقدم للأبيات بقوله (وله زعم في الميضأة)

واستبدل البيت الرابع بالثالث والثالث بالرابع

٩- ديوان ظافر: ١٣٣، ١٣٣- ١٣٤، وفي تشبيه الحمام بالروض له أيضا ص: ٢٤٣، ٤٤

١٠- ديوان ظافر: ٢٠٢ –٢٠٣، وانظر كذلك ص٢٤٣، ٢٤٤

١١- انظر: مطالع البدور ومنازل السرور. ١٤٤، محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي: ١ / ٣١٦، حضارة الحمامات من الرومان إلى مستثمري المساج : ٨ (وفي مطالع البدور: كاد يخلعها، أنكاني وأبكاني)

١٢- انظر: ابن حماد، محمد بن علي الصنهاجي. أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ت: التهامي نفرة، عبد الحميد عويس، القاهرة، دار الصحوة د: ٩٩، القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج ١٣ ص: ٣٥٨، ٣٧٨، النص٥٥ للمقريزي. المواعظ والاعتبار. ٣/ ١

المصادر و المراجع :

الأصفهاني ، ع. ***خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر)*** ت : أحمد أمين ، شوقي ضيف ، إحسان عباس ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ٢٠٠٥م .

ابن بطوطة ، م . ***رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*** ، دار الشرق العربي ، ٢ج .

البغدادي ، ع. ***الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر*** ، مطبعة وادي النيل ج ١ ط ١ ١٢٨٦هـ .

بنات ، م . ***وصف الحمامات في الشعر الأندلسي دراسة موضوعية*** . مجلة جامعة القدس كلية الآداب قسم اللغة العربية ، مج ٢٣ عدد ٢ يونيو ٢٠١٥م .

الترمذي ، م. ***المنهيات*** ، ت : محمد عثمان الخشت ، مكتبة القرآن للطبع والنشر القاهرة ، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦م ج١ .

ابن تيمية ، أ.. ***الكلم الطيب*** ت : السيد الحميلي ، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر بيروت ، ط١ ١٩٨٧- ١٤٠٧ ج١

الثعالبي ، ع- ***اللطائف و الظرائف*** ، دار المناهل بيروت ، ج١ .

ـــــــــــــ ***يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر*** ، ت : مفيد قميحة، بيروت ، دار الكتب العلمية ط١ ج٤ ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣م .

- ابن جبير ، م . ***رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية عصر الحروب الصليبية*** ، ت : حسين نصار ، مكتبة مصر ، .

ابن الجوزي ، ج . ***المدهش*** . ت : مروان قباني، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ط٢ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .

الجوهري ، إ . ***صحاح اللغة وتاج العربية*** ، ت : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ط٤ ج٦ ،١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

الحبازي ، م . **شعر وصف الحمامات في القرنين السادس والسابع الهجريين دراسة موضوعية** ، مجلة جامعة دمشق ، مج ٢٧ عدد ٣+٤ ٢٠١١م

الحداد ، ظ . ***ديوان ظافر الحداد ابن الإسكندرية*** . ت : حسين نصار ، القاهرة ، مكتبة مصر ١٩٦٩م .

الحلي ، ص. ***العاطل الحالي والمرخص الغالي*** ، ت : حسين نصار ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ط٢ ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

ابن حماد ، م. ***أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم*** ، ت : التهامي نفرة ، عبد الحميد عويس ، القاهرة ، دار الصحوة د . ت

حمداوي ، ج. ***نحو نظرية أدبية ونقدية جديدة نظرية الأنساق المتعددة*** ، شبكة الألوكة ط١ ٢٠٠٦م .

الحموي ، ي . ***معجم البلدان*** ، بيروت ، دار صادر ، ط٢ ج٧ ١٩٩٥ م .

ابن خفاجة إ .***ديوان ابن خفاجة*** ،ت : عبد الله سنده ، بيروت ، لبنان ، دار المعرفة ط١ ١٤٢٧-٢٠٠٦م

ابن سعيد المغربي ، ع . ***المقتطف من أزاهر الطرف*** . القاهرة ، شركة أمل ، ١٤٢٥هـ ج١ .

السفاريني ، ش . ***غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب*** ، مؤسسة قرطبة ، مصر ، جزآن ط٢ ١٤١٤ - ١٩٩٣هـ .

سليمان ، س . **التمثل الثقافي وتلقي الأنواع الأدبية الحديثة تجربة النقد العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر** ، مكتبة الآداب ٢٠١٦ م

الشافعي ، أ . ***القول التمام في آداب دخول الحمام*** ، ت : محمد خير رمضان يوسف ، بيروت ، دار ابن حزم ط١ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م

الصنوبري ، أ . ***ديوانه*** ، ت : إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ج٢ ط١ ١٩٩٨م.

ابن عبد الحكم ، ع . ***فتوح مصر والمغرب*** ، مكتبة الثقافة الدينية ج١ ١٤١٥ هـ .

عبد الدايم ، ع . ***النسق الثقافي في الكناية*** ، رسالة ماجستير قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة مولود معمري الجزائر ، ٢٠١١م .

عبد الرحيم ، ر . ***الشاعر نصير الدين الحمامي حياته وما بقي من شعره*** ، مجلة جامعة النجاح للأبحاث العلوم الإنسانية ، مج٢٧ (٥) ٢٠١٣م .

- العساف ، م . ***حضارة الحمامات من الرومان إلى مستثمري المساج*** ،٢٩ رجب ١٤٣٧هـ - ٦ مايو ٢٠١٦ م ، صحيفة الرياض نسخة إلكترونية .

عليمات ، ي . **تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي** ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن ط١ ٢٠١٥م .

_____ - جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الأردن ط١ – ٢٠٠٤ م

الغزولي ، ع .ت ٨١٥ هـ. ***مطالع البدور ومنازل السرور*** . نسخة إلكترونية .

الفراهيدي ، خ . ***كتاب العين*** ، ت : مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ج٨

القلقشندي ، أ . ***صبح الأعشى في صناعة الإنشا*** ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ج ١٥

ابن كثير ، إ. ***كتاب الآداب والأحكام المتعلقة بدخول الحمام*** ، ت : سامي محمد جاد الله ، د . ت.

المجدوب ، ع . ***شعرية الحمامات من خلال تاريخها*** ، نسخة إلكترونية ،الخميس ٢٧ سبتمبر ٢٠١٢ م

مصطفى ، إ. ***تاريخ الحمامات الشعبية في البلاد العربية*** ، مجلة نزوى عدد ٨٦ ، ١ يوليو ٢٠٠٨ م نسخة إلكترونية

ابن مطروح ، ج. ***ديوان ابن مطروح*** ، ت : حسين نصار ، القاهرة ، دار الكتب والوثائق القومية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

ابن المعتز ، ع ، ***ديوانه*** ، ت : كرم البستاني ، بيروت ، دار صادر ، د .ت .

المعيار ، م . ***الحمامات في الدين والأدب والتاريخ*** ، ١٠ ذو الحجة ١٤٢٨هـ ، نسخة إلكترونية .

المقدسي ، م . ***أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*** ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ط٣ ج١ ١٤١١هـ - ١٩٩١ م .

المقري ، أ . ***نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*** ، ت : إحسان عباس ج٨ بيروت ، دار صادر .

المقريزي ، أ . ***المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار*** ، بيروت ، دار الكتب العلمية ط١ ج٤ ١٤١٨ هـ .

ابن منظور ، ج . ***لسان العرب*** ، دار صادر ، بيروت ط٣ – ١٤١٤هـ ج١٥ .

النويري ، أ. ***نهاية الأرب في فنون الأدب*** . القاهرة ، دار الكتب والوثائق القومية ط١ – ١٤٢٣هـ ج٣٣.

الهمذاني ، ب ، . ***مقاماته*** ، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة الأزهرية ج١ ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣م

يحيى، ص. ***تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب*** ، ت : لويس شيخو ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ط٢ ١٩٢٧م.